الجزء الرابع المجلد الخامس والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

محرم الحرام ١٤٠٥ هـ
تشرين الاول ١٩٨٤ م

ظاهرة المشترك اللفظيّ
وشكلة غموض الدلالة

الدكتور احمد نصيف الجنابيّ

الأستاذ المساعد بكلية الاداب – بالجامعة المستنصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

تحتلّ « ظاهرة المشترك اللفظيّ » مكاناً بارزاً في حقل الدراسات الدلالية ، لأنها واحـــدة من مجموعة الظواهر التي تؤلف بمجموعها مـــا يُسَمّى في علم الدلالة الحديث بالعلاقات الدلالية (*) . وهذه الظاهرة تمثل اول ظاهرة دلالية عرفها الفكر الانسانيّ ، بعد معرفته التسمية أو (وضع الاسماء للاشياء) .

واختلفت وجهات نظر اللغويين والدلاليين الى صلة هذه الظاهرة بوضوح الدلالة وغموضها ، فذهب فريق من قدامى الدلاليين – عندنا – ومن محدثي الغرب ، الى أن المشترك اللفظيّ يسبب نوعاً من الإبهام او الغموض في الدلالة .

لذلك بسطت وجهة نظرهم ، ثم رددتُ عليها ، لان هذه الظاهرة ترتبط – من حيث الوضوح أو الغموض – بقضايا سياقيةعديدة نسيها أو اهملها هؤلاء الدلاليون .

واذا كان لكل ظاهرة من ظواهر العلاقات الدلالية منابع كوّنتها ، فانني وجدت أنّ من عناصر استكمال البحث أنْ اعرض لهذه المنابع .

(*) Semantic Relations

وقد جاء بحثي في ثلاثة أقسام ، أو (مباحث) :

الأول : مفهوم الظاهرة وصلتها بالفكر الانسانيّ .

الثاني : منابعُ الظاهرة .

الثالث : الظاهرة بين وضوح الدلالة وغموضها .

وآمل أن اكون وَفّيْتُ هذه الظاهرة حقّها من البحث .

وغاية ما يفعله الإنسان الباحث أنْ يجتهد . وقد بذلتُ جهدي ، ولم آلُ . فإنْ وُفِّقْتُ فتلك أُمنية كل مفكر وباحث ، وإلا فأرجو ألا أُحرم وجهات نظر أخرى يحملها زملائي أو يحملها مفكرون ذوو أقدام راسخة في عالم الدلالة . لأقوّم بها البحث .

والله أسأل أن يسدّد خطانا ، ويلهمنا الصواب في القول والعمل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

★ ★ ★

المبحث الاول

مفهوم الظاهرة وصِلَتُها بالفكر الإنسانيّ

تعني هذه الظاهرة وجود لفظة واحدة دالّة على معنيين أو أكثر دلالة على السواء . (١)

فالمشترك اللفظيّ يعني وجود لفظة واحدة دالة على اكثر من معنى ؛ ولا حدود لهذا الأكثر ، فعلى قدر الاستعمال تكون الحدود ، غير انها حدود قابلة للتغيير . بل نستطيع أنْ نقول مطمئنين : إنّ التغيير من طبيعتها ، فكلما جدّ جديد في هذا الميدان اللغوي الواسع ، وظهرت معانٍ جديدة ، أضيفت الى المحصول اللغويّ ، فازدادت رقعة هذه الظاهرة . وكلما زالتْ دلالة من دلالات اللفظة من الاستعمال ضاقت المساحة اللغوية لهذه الظاهرة .

وهكذا اللغة : ميلاد وموت ، ومدّ وجزر ؛ وظهور واختفاء ، كالحياة الإنسانية نفسها .

ووجود هذه الظاهرة في اللغات المتقدمة في المضمار الحضاري أمرٌ أقرته الدراسات اللغوية الحديثة .

غير أن اللغات البدائية تخلو من هذه الظاهرة . وتوجد فيها بدلاً من ذلك كلمات خاصة للدلالة على المعاني الجزئية ، كما لاحظ (إدوارد سابير (٢) وستيفن أولمان) ، (٣) . وهما من أساتذة علم اللغة في العصر الحديث .

يقول أولمان : (والآثار المترتبة على تعدد المعنى للكلمة الواحدة بالنسبة الى الثروة اللفظية للغة ، آثار بعيدة المدى . من ذلك مثلاً : أن وجود كلمة

---

(١) الأشباه والنظائر في القرآن الكريم /٨٩ . وما بعدها .

(٢) نظريات في اللغة ، لأنيس فريحة /٢٣ .

(٣) في كتابه : دور الكلمة في اللغة /١١٥ – ١١٦

مستقلة لكل شيء من الأشياء التي قد نتناولها بالحديث من شأنه أن يفرض حملاً ثقيلاً على الذاكرة الانسانية . وسوف يكون حالنا حينئذٍ أسوأ من حال الرجل البدائيّ الذي قد توجد لديه كلمات خاصة للدلالة على المعاني الجزئية : كغسل رأسه ، وغسل نفسه ، و غسل شخص آخر ، وغسل رأس شخص آخر ، وغسل وجهه ، وغسل وجه شخص آخر .. الخ . في حين لا توجد لديه كلمة واحدة للدلالة على العملية العامة البسيطة ، وهي : مجرد الغسل) .

إنّ أول قضية من قضايا « صلة الفكر الإنسانيّ باللغة وبالعالم الخارجيّ » نشأت في ذهن الإنسان هي قضية وضع رموز للأشياء ، أو أسماء للمُسَمّيات ، وهي ما أشارت اليه الآية الكريمة : (وعلّم آدمَ الاسماءَ كلها) (٤) .

وهي مسألة تؤيدها كل الوقائع التي تتصل بفكر الإنسان وصلته بالعالم الخارجيّ ، مهما كانت النظرية التي نعتمد عليها في نشأة اللغة الإنسانية (٥) .

فاللغات البدائية ، لم تكن تعرف ظاهرة المشترك اللفظي ، لأنها ذات صلة بالرقيّ الفكريّ والحضاريّ للانسان ... وما اللغة إلاّ تعبير عن هذه النواحي المتصلة بالفكر الإنسانيّ .

أما في الجانب الآخر من جوانب الحضارة الإنسانية ، فان وجود ظاهرة المشترك اللفظي في اللغات الحية المتحضرة أصبح من القضايا المسلم بها ، كحضور الأريج في الياسمين أو القدّاح . وفي لغتنا الجميلة تبدو هذه الظاهرة واضحة وضوح الشمس في وسط النهار الصيفيّ .

وقد اكتفيت في التمثيل لهذه الظاهرة — في لغتنا — بلفظتين : واحدة

---

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٣١

(٥) تنظر التفاصيل في : المدخل الى علم اللغة . للدكتور رمضان عبد التواب ، (ص) ١١٠ وما بعدها . ونظريات في اللغة ، لأنيس فريحة ، صفحات : ٢٣ وما بعدها . وكذلك :
O. Jespesen: Language, P. 330 FF.

فعلية ، والاخرى اسمية . فأعطيت مثالاً على الأولى الفعل (قضى) ، وأعطيت مثالاً على الأخرى الاسم (الهُدَى) .

فالفعل (قضى) يأتي بمعان عدة هي :

(١) فَصَلَ في الأمر ، وحكم .

ومن أمثلته قوله تعالى : (إنّ ربَّكَ يقضي بينهم يومَ القيامة) (٦) ، أي : يفصل بينهم بحكمه ، وقوله تعالى : (وقُضي بينهم بالحقّ) (٧) ، وقوله تعالى : (فإذا جاءَ رَسُولهُمْ قُضِيَ بينهم بالقِسْط) (٨) .

ومن هذا الباب لفظ القاضي . ولفظ القضاء .

(٢) أرادَ إرادةً قطعيّة .

ومنه قوله تعالى : (ما كان لمُؤْمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً أنْ يكونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أمرهم) (٩) ، وقوله تعالى : (اذا قضى أمراً فإنّما يقولُ له : كُنْ فيكونُ) (١٠) .

(٣) ويأتي بمعنى عَمِلَ عَمَلاً بقُدرة وتمكُّنٍ .

ومنه قوله تعالى : (فاقْضِ ما أنت قاضٍ ، إنّما تقضي هذه الحياةَ الدُّنيا) (١١) ، وقوله تعالى : (ليقضي اللهُ أمْراً كانَ مفعولاً) (١٢) .

(٤) ويأتي بمعنى انتهى نهاية لا رجعة فيها .

ومنه الآية الكريمة : (قُضِيَ الأمْرُ الّذي فيه تَسْتفتيانِ) (١٣) ،

---

(٦) سورة يونس ، الآية : ٩٣ .
(٧) سورة الزمر ، الآية ٦٩ .
(٨) سورة يونس ، الآية ٤٧ .
(٩) سورة الاحزاب ، الآية ٣٦ .
(١٠) سورة آل عمران ، الآية : ٤٧ .
(١١) سورة طه ، الآية : ٧٢ .
(١٢) سورة الأنفال ، الآية : ٤٤ .
(١٣) سورة يوسف ، الآية : ٤١ .

والآية الكريمة : (وأَنْذِرْهم يومَ الحسَسْرَةِ إذْ قُضِيَ الأمرُ) (١٤) .

(٥) وبمعنى أنجز العمل وأَتَمّهُ وفرغ منه .

ومنه قوله تعالى : (فاذا قُضيتِ الصَّلاةُ فانتشِرُوا في الأرضِ) (١٥) وقوله تعالى ؛ (فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله) (١٦) .

وبهذه الدلالة جاء الفعل (قضى) في بيت أبي ذُؤْيب الهُذَليّ :

وعليهمـــا مسرودتانِ ، قضـــاهمـــا
(داوودُ) ، أو صَنَعُ السّوابِغِ (تُبَّعُ)

(٦) وقضى فلانٌ عبرته : بكى حتى شفى .

وعلى هذا جاء بيت أوسٍ بن حجر (١٧) .

أم هل كثيرُ بُكىً لم يقض عَبْرَتَهُ
إثرَ الأحبّةِ ، يوم البَيْنِ معـــذور

ويبدو أنّ هذه الرؤية ، وهذا التصور ، لابُدّ منهما ، لأننا لانستطيع أن نفترض معرفة الإنسان « بظاهرة المشترك اللفظيّ » قبل معرفته وضع اسم لكل مُسَمّى ، بشكل منفصل ؛ لأن معرفة المشترك اللفظيّ يقتضي معرفة لون من ألوان الرابطة الفكرية التي تفرضها هذه الظاهرة على الفكر الانسانيّ . كما تقتضي معرفة ظاهرة المشترك اللفظيّ معرفة الرابطة الاشتقاقية بين الالفاظ ، وهي مرحلة تقتضي معرفة أوسع من معرفة التسمية المجردة ، او وضع الرموز للاشياء مادية ومعنوية .

(١٤) سورة مريم ، الآية : ٣٩ .
(١٥) سورة الجمعة ، الآية : ١٠ .
(١٦) سورة (البقرة) الآية : ١٠٠ .
(١٧) اللسان (قضى) ٢٠ /٤٧ .

وقد أدلى فريق من أساتذة اللغة في القرن العشرين بشهادات تدلّ دلالة قوية على صحة هذا التصور وتعضده . فهذا (سابير) يقول في كتابه « اللغة » (١٩٢١ م) : « كلما رجعنا الى الوراء في تاريخ اللغات وجدنا مظاهرَ تعقيدٍ ، وعدم منطق . وكلما تقدمنا نحو الأعصر الاخيرة من تاريخ اللغة وجدنا شبه اتجاه نحو التبسيط والقياس والمنطق » . ويقول أيضا : « إن في لغة قبيلة يانا Yana ، في كاليفورنيا ، نوعين من التراكيب : واحداً للنساء ، وواحداً للرجال ، أيْ : أن لفظة بيت في لغة النساء كلمة مغايرة للفظة بيت في لغة الرجال) .

فإذا أضفنا الى ذلك شهادة « س . أولمان » في كتابه دور الكلمة في اللغة (١٩٥٤ م) ، وقد مضت ، ظهر لنا أن اللغات البدائية تتّسم بكونها :

أ . تفتقر الى المنطق .

ب . تفتقر الى القياس .

ج . تفتقر الى المشترك اللفظيّ .

وهذا يدلّ على أنّ أول ما نشأ في ذهن الإنسان هو وضع اسم لكل مسمى ، وأنّ (آدم) أصل الإنسان ، لم يكن يعرف من العلاقات بين الفكر والأشياء إلاّ هذه العلاقة القريبة : علاقة تسمية بسيطة بساطة الحياة الإنسانية في أول مراحلها .

وكُلّ الوجوه التي يدلّ عليها الفعل (قضى) ترجع الى أصل واحد ، هو التمام والانقطاع « وكل ما أُحكم عمله وأُتمّ أو أُدِّيَ أداءً واجباً ، أو أعلم او أُنفذ فقد قضى » (١٨) .

(٧) ومنه : القضاءُ والقَدَر

والمرادُ بالقَدَر : التقدير . وبالقضاء : الخَلْقُ .

(١٨) اللسان (قضى) .

وعليه جاءت الآية الكريمة : (فقضاهُنّ سبعَ سَمٰوات) (١٩) ، أي : فخلقهُنّ وعملهنّ وصنعهنّ وأحكم خَلقهُنّ .

وعليه جاء قول عمرو بن ضُبيعة الرَّقاشيّ : (٢٠)

ألا ليقُلْ من شاء ما شاء ، إنما
يُلامُ الفتى فيما استطاع من الأمـــرِ
قضى اللهُ حُبَّ المالكيّة فاصْطَبِر
عليه ، فقد تجري الأمورُ على قَدْرِ

فالقضاء والقدر ، أمران متلازمان ، لا ينفكّ أحدهما عن الآخر ؛ لأنّ أحدهما بمنزلة الأساس (وهو القدر) ، والآخر بمنزلة البناء (وهو القضاء) .

(٨) ويأتي الفعل (قضى) بمعنى (مات وأمات) ، لازماً ومتعدياً .

ويبدو أن الفعل (قضى) بهذه الدلالة الأخيرة قد تطور ، من حيث التركيب النّحوي (٢١) ، الى أربع صيغ :

* الصيغة الأولى ، وتتكوّن من :

الفعل + الفاعل + حرف الجرّ + الاسم المجرور .

والاسم المجرور ، هو المفعول به في المعنى .

ومن أمثلته الآية الكريمة : (فلما قَضَينا عليه الموتَ ما دلَّهُمْ على موتِه إلاّ دابّةُ الأرضِ تأكلُ مِنْسَأَتَهُ » (٢٢) .

وهذه الصيغة هي الأصل في هذا التركيب النحويّ .

---

(١٩) سورة فصلت ، الآية : ١٢ .
(٢٠) ديوان الحماسة /٤٣٩ (ق ٥٨٦)
(٢١) Syntactic Structure
(٢٢) سورة سبأ ، الآية : ١٤ .

* الصيغة الثانية ، وتتكون من :

الفعل + الفاعل : اسم ظاهر او ضمير + الجار والمجرور .

ومن أمثلتها قوله تعالى : (يا مالِكُ لِيَقْضِ علينا رَبُّكَ) (٢٣) ، أي : بالموت .

وقد تطورت الصيغة الثانية إلى :

* الصيغة الثالثة ، وتتكون من :

الفعل + الجار والمجرور .

ومن أمثلة هذه الدلالة قولهم : « قضى عليه » ، أي : أهلكه او أنهى دوره .

وعلى هذه الصيغة جاءت دلالة العبارة : « الضربة القاضية » في الملاكمة .

* الصيغة الرابعة ، وتتكون من :

الفعل + المفعول به (ضمير متّصل) + الفاعل (ضمير مستتر)

ومن أمثلة هذه الصيغة قول : عروة بن حزام يصف ناقته ، في نونيته المشهورة :

تَحِنُّ فَتُبْدِي مابها من صَبابة

وأُخْفِي الّذي لولا الأَسَى (لقضاني)

وهنا يصدق قول العالم اللغويّ (جسبرسن) ، في كتابه – الجدير بالترجمة – (٢٤) « اللغة : طبيعتها ، وتطورها ، واصولها » : « ليس هناك أدنى ريب في أنّ جميع اللغات تتجه – في تطورها – نحو تقصير صيغ الكلمات » (٢٥) .

---

(٢٣) سورة الزخرف ، الآية : ٧٧ .

(٢٤) طبع بالانجليزية – حتى سنة ١٩٦٨ م – ثلاث عشرة طبعة .

(25) O. Jespersen : Language, P. 330

وقد سمّى العربُ « الموت » : « القَضيّ » ، بزنة « الوليّ والوصيّ » .

وهنا حدث تطوران :

الأول : استحداث كلمة جديدة دالّة على الموت ، للتخلص منه لغوياً ، في الأقل .

الآخر : التخلص – من الناحية النفسية – من أذى الموت ، والابتعاد عن شبحه ، فكرياً ونفسيا ...

وقد استعاضت العربيّة عن كلمة الموت بكلمات اخرى ، أو بعبارات ، مثل : مضى ، قضى نحبه ، خلّى مكانه ، صار في ذمة الخلود ، وغيرها .

ويبدو أن الاتجاه نحو التخلص من الموت بالمعنيين السابقين ، قد فعل فعله في اللغات الحية الاخرى .

ففي الفرنسية يقولون (بدلا من : يموت morir) :

Perir	يَفنى
Passer	يمرّ
Trepasser	يعبر

وغيرها من الألفاظ ، التي تسير في هذا الاتجاه . (٢٦)

وكذلك تستعيض اللغة الألمانية عن الفعل « مات » بمثل :

Vergehen	: اختفى ، أو : زال .
Verbleichen	: استحال اللون ، او : بهت .
erblassen	: امتقع لونه .

وهكذا تفعل كل لغة حية ، ما دام شبحُ الموت يطارد الأحياء .

ومن أمثلة الأسماء في باب المشترك اللفظي (الهُدَى) .

(١) أصل معنى (الهدى) : الايصال .

وعليه جاء الحديث الصحيح الذي رواه الامام البخاري في صحيحه عن

(٢٦) اللغـــة ، لفندريس /٢٨٠ .

عبدالله بن مسعود ، قال : قال النبيّ ، صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصّدق ، فان الصدق يهدي الى البرّ ، وإن البِرَّ يهدي الى الجنة ... وإياكم والكذب ، فإنّ الكذب يهدي الى الفُجور ، وإنّ الفجورَ يهدي الى النار ... » .

(٢) ومن هنا دلّتْ لفظة (الهُدَى) على (الطريق) .

ومن أمثلة هذه الدلالة الآية الكريمة : (او أجِدُ على النّارِ هُدَى»(٢٧) ، أي : طريقاً .

والشاهد الشعري هو قول الشّمّاخ : (٢٨)

قد وَكّلتْ بالهُدَى إنسانَ ساهمة

كأنّه مِنْ تمامِ الّظِمْءِ مسمــولُ

وبهذه الدّلالة نفسها جاءت لفظة الهدى في سياق الآية : (وإنّك لَعَلَى هُدىً مستقيم) (٢٩) ، والآية الأخرى : (قل : إنّ هُدَى اللهِ هو الهُدَى).

ثم اكتسب لفظ « الهدى » معنى مجازياً ودلالةً جديدة بالاستعمالات القرآنية والمجازات النبوية ، فجاء بمعنى التسديد والدلالة على الخاتمة المحمودة وغير المحمودة ، والنهاية السعيدة وغير السعيدة .

أما في النهاية السعيدة ، فقد جاءت الآية الكريمة : (إنّ هذا القرآنَ يَهْدِي للّتي هي أقومُ ، ويُبَشّرُ المؤمنينَ الذين يعملُون الصّالحات أنّ لهم أجراً كبيراً) (٣١) .

---

(٢٧) سورة طه ، الآية ١٠ .
(٢٨) اللسان (هدى) ٢٢٩/٢٠ .
(٢٩) سورة الحج ، الآية ٦٧ .
(٣٠) سورة الانعام ، الاية : ٩ .
(٣٠) سورة الانعام ، الآية ٧١ .
(٣١) سورة الاسراء ، الآية ٩ .

وفي هذه الدلالة جاء لفظ الهدى في الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ، في خطاب النّبيّ ، صلى الله عليه وسلم ، له : « لأَنْ يَهْدِيَ الله بك رجلاً خيرٌ لك من حُمْرِ النّعَمِ) .

أما في النهاية السيئة ، فقد جاءت كلمة « الهدى » دالة عليها في الآية الكريمة : (فاهْدُوهم الى صِراطِ الجحيم) (٣٢) .

ولذلك أطلق العرب لفظة « الهدى » على « النهار » ؛ لأن الأشياء تظهر فيه ، فيستدل الإنسان بالضياء ، فيصل الى الأشياء ، ويهتدي اليها بوضوح وجلاء .

ومن هذا الباب اشتُقّتْ الألفاظ الاصطلاحية الإسلامية في القرآن الكريم ، مع إعطائها دلالات جديدة .

فقد سمّى الله سبحانه وتعالى القرآن « نوراً وهدى » ؛ لأنّ هذا الكتاب العزيز نزل بلسان عربيّ واضح مبين ، ليفهمه الناس حَقّ الفهم ، فيهتدي به من يهتدي على بيِّنة ، ويضلّ مَنْ يضل عن بينة . قال تعالى : (يا أيّها النّاسُ قد جاء كم بُرْهانٌ من ربّكم ، وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) (٣٣) . وقال عزّ من قائل : (هو الذي ارسلَ رسُولَهُ بالهُدَى ودينِ الحَقّ) (٣٤) .

(٣) والهُدَى يقابل الضّلال (في الايمان) .

وهذا المعنى كثير الدّوَران في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وهو المراد بالهدى عند إطلاقه .

ومن الأمثلة عليه قوله تعالى : (قُلْ : إنّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى)(٣٥) ،

(٣٢) سورة الصافات ، الآية : ٢٣ .
(٣٣) سورة النساء ، الآية : ١٧٤ .
(٣٤) سورة التوبة ، الآية: ٣٣ .
(٣٥) سورة الانعام ، الآية : ٧١ .

وقوله عزّ عنْ قائل: (ذلكَ هُدَى الله يَهْدِي به من يشاءُ منْ عباده) (٣٦)، وقوله سبحانه : (وإنّه لَهُدَىً ورحمةٌ للمؤمنين) (٣٧) ، وقوله تعالى : (وأمّا ثمودُ فهديناهُمْ فاسْتَحَبُّوا العَمَى على الهُدَى » (٣٨) .

وغير هذا كثير .

(٤) والهدى الكتاب المُنَزَّل .

أما دلالة لفظة الهدى على القرآن الكريم ، فقد مضت .

أما دلالتها على التوراة الحقيقية ، فقوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الهُدَى) (٣٩) . ويشفع لهذا التفسير قوله تعالى في آية أخرى : (ولقد آتينا موسى الكتاب) (٤٠) .

أما دلالتها على الانجيل الحقيقي المنزل على عيسى ، عليه السلام ، فقد وردت الآية الكريمة : (وأنزلنا التوراةَ والإنجيل من قَبْلُ هُدىً للنّاسِ) (٤١) ، مشيرةً اليه .

(٥) ويأتي الهدى بمعنى الوضوح والبيان .

وفي هذه الحال يكون فعله لازماً ، لا متعدياً .

وعلى هذا دلت الآية الكريمة : (أفلم يَهْدِ لهم كم أهلكنا قَبْلَهُمْ من القرون يَمْشُون في مساكنهم) (٤٢) . ومثلها الآية الكريمة : (أو لم يَهْدِ لهم كم أهلكنا من قبلِهم من القرون) (٤٣) .

(٣٦) سورة الانعام ، الآية : ٨٨ .
(٣٧) سورة النمل ، الآية : ٧٧ .
(٣٨) سورة فصلت ، الآية : ١٧ .
(٣٩) سورة غافر ، الآية : ٥٣ .
(٤٠) سورة السجدة ، الآية : ٢٣ .
(٤١) سورة آل عمران ، الآية : ٤ .
(٤٢) سورة طه ، الآية ٤ .
(٤٢) سورة طه ، الآية : ١٢٨ .
(٤٣) سورة السجدة ، الآية : ٢٦ .

(٦) والهادي : الداعي :

ومن أمثلته القرآنية قوله تعالى : (إنّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يهدي الى الرُّشْدِ ، فآمّنا به) (٤٤) ، أي : يدعو الى الرُّشدِ . وقوله تعالى : (وجعلنا منهم أئمّةً يَهْدُون بأمرِنا » (٤٥) ، وقوله تعالى : (إنّا سَمِعنا كتاباً أُنزل من بعدِ موسى مُصدِّقاً لما بينَ يَدَيْهِ ، يَهْدي الى الحقّ) (٤٦) .

(٧) والهدى : معرفة السرّ أو الأمر الخفيّ .

قال تعالى في شأن سليمان وبلقيس : (قال : نَكِّرُوا لها عَرْشها ننظر أتَهْتَدِي أم تكونُ من الّذين لا يهتدون) (٤٧) ، أي : أتعرفُ السِّرَ أم تكونُ من الذين لا يعرفون (٤٨) .

(٨) والهُدَى : الإلهام .

ومن ذلك الآية الكريمة : (الّذي أعطى كُلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (٤٩) ، والآية الكريمة : (والّذي قدّر فَهدَى . والذي أخرج المَرْعى ، فجَعَلَه غُثاءً أَحْوَى) (٥٠) .

وقد اوردت كتب اللغة وكتب المشترك اللفظي دلالات أخرى للفظة «الهدى»(٥١)،غير أنني وجدتها متداخلة مع الدلالات التي اوردتُها ، ولذلك اعرضت عن ذكرها .

(٤٤) سورة الجن ، الآية : ٢ .
(٤٥) سورة السجدة ، الآية : ٢٤ .
(٤٦) سورة الاحقاف ، الآية : ٣ .
(٤٧) سورة النمل ، الآية ٤١ .
(٤٨) الأشباه والنظائر ، لمقاتل بن سليمان /٩٢ .
(٥٠) سورة الأعلى ، الاية : ٣
(٤٩) سورة طه ، الآية : ٥٠ .
(٥٠) سورة الأعلى ، الآية : ٣ .
(٥١) الأشباه والنظائر ٨٩ – ٩٣ ، وتهذيب اللغة (هدى) ٣٧٨/٦ ، واللسان (هـدى) ٢٢٩/٢٠ – ٢٣١ .

المبحث الثاني

منابعُ ظاهرة المشترك اللفظيّ

إن منابع المشترَك اللفظيّ الأساسية هي :

(١) التوليد الدلالي

توليدُ الدلالة الجديدة سِمَة من سِمات الحياة اللغوية النامية المتجددة أبداً . وهو علامة من علامات الصحة ، وإشارة الى أن الحياة طبيعية بشرط أن يكون في نطاق الحياة وفي حدود متطلباتها الفكرية والثقافية والعلمية ، لا أنّ يكون سِمَة من سمات الفتنة بكل جديد — مهما كان — ولا الركض وراء كُلّ مدّعٍ مدخول السريرة يحاول باسم الجديد أن يمسخ لغة الأُمّة وتراثها وشخصيتها . واذا كان الركض وراء كل جديد منهجاً لأُمّة ، فهذا يعني أن هذه الأمّة قد فقدتْ مقوّماتها وروحها وشخصيتها .

إنّ الحياة الإنسانية والحياة الكونية ، لهما جانبان :

جانب الثبات ، وجانب التغير . ويحدث التغير بحسب القوانين والسنن الكونية الثابتة التي وضعها خالق الكون .

وما اللغة إلا مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية ، فالدلالات تتطوّر فيها أو تتولد (أو تُوَلّد) ، بحسب ضوابط وقوانين وأنظمة . ولكل لغة قواعد وأنظمة يجب أنْ تُراعى ؛ لأنّ عدم مراعاتها يُخرج الإنسان عن طبيعة تلك اللغة ، فلا يفهمه أهلها . فكيف بغيرهم ؟ !

فاللغة ودلالتها في تجدد دائم وفي ميلاد مستمرّ . وتجددها سِمَةٌ من سِمات الحياة ، مثل تجدد الخجيرات في جسم الإنسان .

وفي اللغة العربية — قبل ظهور نور الاسلام — معجم كبير من الدلالات .

ثم جاء الإسلام فدخلت اللغة العربية بالقرآن الكريم ، في طور جديد ،

وحياة جديدة . وجاء القرآن العظيم باستعمالات جديدة ودلالات جديدة ... إنه سفرٌ جديد للحياة الإنسانية ، وللحياة اللغوية .

وقد سَمَّى اللغويون هذا الجديد اللغويّ « المصطلح الإسلامي » . أو « الكلمات الاسلامية » . والتعبير الأول أدقّ .

ولأبي حاتم الرّازيّ : أحمد بن حمدان (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) كتاب : « الزينة في الكلمات الإسلامية » .

وللشريف الجُرْجانيّ (المتوفى سنة ٨١٦ هـ) كتاب : «التعريفات » . وهو في مصطلحات العلوم والآداب العربية والإسلامية .

وبعدهما يأتي التهانَويّ (المتوفى سنة ١١٥٩ هـ) ، بكتابه القيمّ : « كشّاف اصطلاحات الفنون » ، وهو أوسع كتب المصطلح الإسلامي .

وفي قسم من كتب اللغة «كالصاحبي » (لأحمد بن فارس ، المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) ، و « المزهر » للسُّيُوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) مباحث في المصطلحات الإسلامية .

وللأدباء والكتاب والشعراء المبدعين أثر كبير في توليد الدلالة الجديدة . فقد أتى هؤلاء باستعمالات مستحدَثة ، ودلالات جديدة لـــم تكن معروفة عند العرب من حيث الاستعمال ، فوسّعوا بذلك من دائرة المشترك اللفظيّ .

وقد لاحظ (ابن فارس) الأسباب الإسلامية لتطور اللغة العربية ، فقال : « كانت العرب في جاهليتها على إرثٍ من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ... فلما جاء الاسلام ، حالت أحوال ، ونسخت ديانات ، وأُبطلتْ أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظٌ من مواضعَ أُخَرَ ، بزيادات زيدتْ ، وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت » (٥٢) .

(٥٢) الصاجي في فقه اللغة /٧٨ .

وهذه نظرة دقيقة ووقفة سليمة ، تمثل واقع اللغة العربية بعد نزول القرآن الكريم .

وهي ليست بغريبة على الرجل الذي ألّف « مقاييس اللغة » ، الكتاب المعبرّ عن نظرة أصيلة الى اللغة ، سواء أوافقنا وجهة نظره أم خالفناها .

وأول كتاب يتّصل بالدراسات القرآنية في علم الدلالة له علاقة بظاهرة المشترك اللفظيّ ، هو كتاب « الأشباه والنظائر في القرآن الكريم » لمقاتل بن سليمان : اللغوي المفسّر ، (المتوفى سنة ١٥٠ هـ) . وقد جمع فيه (١٨٥) لفظة من ألفاظ المشترك اللفظيّ ، في القرآن الكريم ، منها الاسماء ، ومنها الأفعال ، ومنها الحروف ؛ وهي أقلها عدداً .

والسّمةُ البارزة في الكتاب أنه يبيّن أثر السّياق في تحديد الدلالة وتوضيحها ، مع بيان أثر اختلاف الموقع في اختلاف المعنى .

غير أنه لم يستوعب كل ألفاظ المشترك اللفظيّ في القرآن الكريم ، ولا معاني كل لفظ أورده (٥٣) .

وهو بهذا أول معجم دلالي (خاص ومحدود) ، من معاجم المشترك اللفظيّ ، يصل إلينا .

أمّا إذا أردنا المعجم بمعناه العام ، فيكون « كتاب العين » للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ – ١٧٥ هـ) اول معجم شامل من معاجم المشترك اللفظيّ (٥٤) .

---

(٥٣) نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م بتحقيق الدكتور عبد الله محمود شحاتة .

(٥٤) بإزاء هذه الحقيقة التاريخية يكون قول الدكتور أحمد مختار عمر : (إن كتاب المنجد في اللغة ، لكراع النمل، أقدم كتاب شامل يصل الينا في موضوع المشترك اللفظي) قولا يحتاج الى مراجعة لأن كراع النمل توفي سنة ٣١٠ هـ ، وبينه وبين الخليل أمد بعيد . تنظر : مقدمة المنجد في اللغة /١٧ بتحقيق الدكتور أحمد مختار عمر .

ومن الألفاظ التي توسع القرآن في استعمالها وولّد فيها دلالات جديدة ، لفظة « السجود » . وهي من الألفاظ التي لم يذكرها « مقاتل » في «أشباهه».

والأصل في استعمال الفعل « سَجَدَ » عند العرب أنْ يدلّ على الخضوع والتعظيم . وقد اتخذ التعظيم صوراً عديدة فإما أنْ يحني الإنسان رأسه للملك تعظيماً له ، وإمّا أن يضع جبهته على الارض . قال ابن سِيدَهْ : « وكل من ذلّ وخضع ، فقد سجد » (٥٥) .

وبهذه الدلالة جاءت مجموعة من الآيات الكريمة ، منها : (وإذْ قال رَبُّك للملائكة : اسْجُدُوا لآدَمَ) (٥٦) .

قال ابن عباس – رضي الله عنه – في تفسير دلالة السجود هنا : « كان سجود الملائكة لآدم سجود تحية كسجود أبَوَيْ يُوسُفَ عليه السلام ، لا سجود عبادة » (٥٧) ، وسجود أبَوَيّ يُوسُفَ هو المذكور في الآية الكريمة : (ورَفَعَ أبَوَيْهِ على العَرْشِ وخَرُّوا له سُجّداً) (٥٨) .

قال الزّجاج في تفسير هذه الآية : « كان من سُنّة التعظيم في ذلك الوقت أنه يُسْجَد للمعظَّم » .

وعقّب الأزهريّ على هذا القول ، بقوله : « هذا قول الحسن البصريّ . والأشبه بظاهر الكتاب أنهم سجدوا ليوسف ، دلّ عليه رؤياه الأولى : (إنّي رأيتُ أحَدَ عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رَأَيْتُهُمْ لي ساجِدِينَ)(٥٩) فظاهر التلاوة أنهم سجدوا ليوسف تعظيماً له من غير أنْ أشركوا بالله شيئاً ، وكأنهم لم يكونوا نُهُوا عن السّجود » (٦٠) .

---

(٥٥) اللسان (سجد) ٤/١٩٠

(٥٦) سورة البقرة ، الآية ٣٤ .

(٥٧) المحرر الوجيز ، لابن عطية ١/٢٣١ .

(٥٨) سورة يوسف ، الآية ١٠٠ .

(٥٩) سورة يوسف ، الآية ٤ .

(٦٠) تهذيب اللغة (سجد) ١٠/ ٥٦٩ .

أما السجود بمعنى الخضوع ، فقد جاءت فيه الآية الكريمة : (واذا قيل لهم : اسجُدُوا للرَّحْمن ، قالوا : وما الرَّحْمنُ ؟) (٦١) . ومنه قول بعضهم.

« مَلاكٌ تَدِينُ له المُلُوكُ وتسجُدُ »

أي : تَدِينَ له الملَوك بالخضوع والطّاعة (٦٢) .

ويأتي السجود بمعنى طأطأة الرّأس والانحناء .

ومنه قوله تعالى : (فَكُلُوا من حيثُ شِئْتُمْ رَغَداً ، وادخلوا البابَ سُجّداً) (٦٣) .

وأضاف القرآن الكريم دلالات جديدة للسجود ، فجاء بمعنى السجود في الصّلاة بهيئته المعروفة في الصلاة الإسلامية . قال تعالى : (سِيماهم في وُجُوهِهم من أثر السُّجُودِ) (٦٤) . قال عزّ مِنْ قائل : (والّذين يَبِيتُونَ لِرَبّهم سُجّداً وقِياماً) (٦٥) . وقوله سبحانه : (تَراهم رُكّعاً سُجّداً يبتغونَ فضلاً من اللهِ ورِضْواناً) (٦٦) .

وهذا هو المعنى الشائع في القرآن الكريم والفقه الإسلامي .

ويطلق « السجود » على الصّلاة نفسها ، من باب إطلاق الجزء ويراد به الكل . قال تعالى : (يَتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللّيْلِ وهم يسجُدُونَ) (٦٧) .

أيْ : يقرؤون القرآن في الصلاة ، وليس في أثناء السجود ، لأنّ القرآن الكريم يُقرأ في أول كل ركعة ، ولا يقرأ في السجود البتّةَ .

---

(٦١) سورة الفرقان ، الآية ٦٠ .
(٦٢) اللسان (سجد) ١٩٠/٤ .
(٦٣) سورة البقرة ، الآية ٥٨ .
(٦٤) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .
(٦٥) سورة الفرقان ، الآية ٦٤ .
(٦٦) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .
(٦٧) سورة آل عمران ، الآية ١١٣ .

فدلّت هذه الآية الكريمة على أن السجود هنا جاء بمعنى الصلاة .

وجاء في القرآن العظيم بمعنى الخضوع لسُنَن الله في الكون . قال تعالى : (ولله يسجُدُ مَنْ في السّموات والأرضِ طَوْعاً وكَرْها) ، أي : منهم من يخضع طائعاً ، وهو الذي يملك الإرادة ، ومنهم من يخضع مكرها وهو الذي لا يملك الإرادة ، كالسّموات والأرض والنجوم والكواكب والحيوانات التي لا تعقل .

وبهذه الدلالة وردت الآية الكريمة : (والنّجْم والشّجَرُ يسُجدانِ) (٦٨) .

قال الفرّاء : « النّجْمُ : ما نجم مثل العُشْب والبَقْل . والشّجَرُ : ما قام على ساق » (٦٩) .

(٢) تداخل اللهجات .

اللغة العربية المشتركة مركز تجمعت فيه لهجات كثيرة وظواهر لغوية متعددة .

ولعل أقدم من أشار الى ذلك من اللغويين العرب ، الخليل بن أحمد الفَراهيديّ (ت ١٧٥ هـ) ، فقال في كتابه : (العين) :

« رَكِنَ الى الدُّنْيا : مال اليها وأطمأنّ ، يركَنُ ركناً .

ورَكَنَ يركُنُ رُكوناً ، لغة سُفلى مُضر ....

وناسٌ أخذوا من اللغتين فقال : ركَن يركَن .. » (٧٠) .

فالاصل في (فعل يفعل) المخالفة في حركة عين الفعل في الماضي والمضارع .

(٦٨) سورة النحل ، الآية : ٤٩ .
(٦٩) معاني القرآن ١١٢/٣ .
(٧٠) العين (ركن) ٣٥٤/٥ .

ويرى الصرفيّون العرب أن الاصل في مضارع (فَعَل) هو المخالفة بالكسر (يفعِل) ، أو بالضمّ (يفعُل) . أما المماثلة (أي : الفتح في الماضي والمضارع) ، فأمر طارئ ، أو من تداخل اللهجات كما لاحظ « الخليل » . رحمه الله .

وقد قال الرّضيّ : « إعلم أنّ أهل التصريف قالوا : إنّ فَعَل يفعل — بفتح العين فيهما — فرع على فعل يفعُل أو يفعِل » (٧١) .

ولاحظوا أنّ التماثل يحـدُثُ باطّراد إذا كانت عين الفعـل ولامه أحد أحرف الحلق : « الهمزة والعين والغين والحاء والخاء والهاء » (٧٢) .

أمّا اذا لم يكن عينه ولا لامه أحد أحرف الحلق ، فيكون شاذاً عند بعض اللغويين (٧٣) . ومن تداخل اللغات عند بعضهم (٧٤) .

وما رآه (الخليل) يتعدى فعَل يفعَل ، الى فعِل (بكسر العين في الماضي) .

هذا في باب أوزان الأفعال .

أمّا في باب المصادر ، فقد لاحظ سيبويه أنّ العرب جاءت بالمصادر حين أرادت انتهاء الزمان على وزن (فِعال) ، فقالوا : الصّرام والقِطاع ، وربّما دخلت اللهجة في أُخرى ، فكان فِعَال وفعَال — بفتح الفاء وكسرها — مثل الحِصاد والحَصاد (٧٥) .

أمّا في باب الدلالة فان تداخل اللهجات أدى الى نشوء دلالات جديدة ، وإثراء المشترك اللفظيّ .

---

(٧١) شرح الشافية ١١٧/١ .
(٧٢) المقتضب (للمبرد) ١١١/٢ وشرح المفصل (لابن يعيش) ١٥٣/٧ .
(٧٣) الكتاب ٢٥٤/٢ .
(٧٤) الخصائص ٣٧٤/١ ، ٣٧٥ .
(٧٥) الكتاب ٢١٧/٢ .

أمّا من حيث توليد الدلالة الجديدة ، فأنْ تدل اللفظة في لهجة معينة على شيء معين ، وتدل اللفظة نفسها على شيء آخر في لهجة أخرى .

(فالطّالع) : الشخص الذي يطلع عليك .

ويدلّ — عند أهل اليمن — على « الهلال » . (٧٦) .

(والسّرحان) : الذّئب . ويطلق في لهجة هُذَيْل على «الأسد» (٧٧) .

و(الضّنا) : السقم . ويطلق في لهجة طَيّئ على (الولد) (٧٨) .

ومازال أهل مصر يستعملون اللفظة بهذه الدلالة الأخيرة . فتقول الأم لابنها وابنتها : يا ضَناي ، تريد : يا ولدي . وهي بهذه الدلالة توافق الدلالة الفصحى للفظة وبها جاء القرآن الكريم . قال تعالى : (يُوصيكُم اللهُ في أولادِكم ، للذّكَرِ مثلُ حَظّ الأُنْثَيَيْنِ) (٧٩) .

و(السّمَدُ) في الناس : السهو والغفلة ، ويطلق على الغناء في اللهجة الحميرية (٨٠) .

و(الحِجْرُ) : الفرس الأُنثى . لم يُدْخِلوا فيه الهاء ؛ لانه اسم لا يشركها فيه المذكر (٨١) .

والحجر : يأتي في بعض لهجات العرب ليدل على اللُّبِّ والعقل . ومنه قوله تعالى : (هل في ذلك قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ) . وعليه جاء بيت ذي الرُّمّة : (٨٢)

---

(٧٦) المنجد (لكراع) : ٢٥٠ .
(٧٧) اللسان (سرح) ٣١١/٣ .
(٧٨) المنجد /٢٤٨ .
(٧٩) سورة النساء ، الاية ١١ .
(٨٠) اللسان (سمد) ٢٠٤/٤ .
(٨١) اللسان (حجر) ٥/ ٢٤٢ .
(٨٢) إيضاح الوقف والابتداء (لابن الأنباري) ٧٥/١ .

فأخضيتُ ما بي مِنْ صديقي وإنَّهُ
لَذُو نَسَبٍ دانٍ إليَّ وذو حِجْرِ

وتعد المثلثات اللغوية من الوسائل التي تثري المشترك اللفظي .

ويعرفه ابن السِّيد البطليوسيّ بقوله : « ما اتفقت أوزانه ، وتعادلت أقسامه ، ولم يختلف إلا بحركة فائه فقط ، كالغَمْر والغِمْر والغُمر ، أو بحركة عينه كالرَّجل والرجل والرجُل ، أو كانت فيه ضمتان تقابلان فتحتين وكسرتين ، كالسَّمْسَم والسِّمِسم والسُّمْسُم ... » (٨٣) .

هذا هو المفهوم العام الشائع للمثلث اللغوي (٨٤) .

والمثلث اللغوي نوعان — من حيث الدلالة :

نوع اتفقت فيه الدلالة ، ونوع اختلفت فيه الدلالة .

فإذا جاءت اللفظة الواحدة بثلاث صور : بالفتح والضم والكسر ، وكانت دلالتها واحدة ، فهي من باب تداخل اللغات ؛ لأنه ليس من المقبول عقلاً أن تحرك القبيلة الواحدة الكلمة الواحدة بثلاث حركات لتدل على معنى واحد ؛ لأنّ هذا يُحدِث التباساً في الفهم . ومن أمثلة ذلك (الحضرة) بفتح الحاء وكسرها وضمها ، بدلالة واحدة . يقال : كلمته بَحضْرة فلان وحِضْرته وحُضرته ، أي : بحضوره (٨٥) . ويقال : خِثر اللبن وخَثَرَ

---

(٨٣) المثلث لابن السيد ١/٩٨ ٢ (بتحقيق : الدكتور صلاح الفرطوسي) .

(٨٤) وألف ابن فارس كتاباً اسمه (كتاب الثلاثة) : عالج فيه تقاليب ثلاثة من مادة واحدة على وزن واحد ، مثل : الحليم والجميل واللحيم — ينظر : كتاب الثلاثة /٢٧ بتحقيق أستاذي الدكتور رمضان عبد التواب (ط . القاهرة ١٩٧٠) .
وعده الدكتور الفرطوسي من كتب المثلثات ، ولا أراه كذلك ؛ لأنه كتاب في الجناس الناقص ، وليس في المثلثات ....

(٨٥) المثلث ، لابن السيد ١/٤٣١ .

وخَتُر ، بمعنى (٨٦) . ويقال : بَغاث وبِغاث وبُغاث لما يُصاد من الطير ، ولا يصيد (٨٧) .

أما في حالة اختلاف الدلالة ، فمن المقبول عقلاً أن تكون القبيلة الواحدة أطلقت ثلاث صور * على ثلاث دلالات ؛ لأن اختلاف الحركة في العربية له أثر كبير في اختلاف الدلالة واختلاف المعنى .

ومن المحتمل أن تكون كل صورة من الصور اللفظية أطلقت على دلالة واحدة في قبيلة واحدة ، ثم اجتمعت الصور الثلاث في اللغة المشتركة ، او في المعاجم اللغوية في أقل تقدير .

★ ★ ★

(٣) الاستعارة

إن اللغويين العرب — وغيرهم — من الذين يعتقدون بوجود المجاز في اللغة ، يرون أن الكلمة وضعت في الأصل لاستعمال معيّن . فاذا ما استعملت الكلمة استعمالاً آخر ، وكانت العلاقة بين الكلمتين علاقة مشابهة ، فهذا الاستعمال الجديد هو الاستعارة .

ومن اللغويين المحدثين من يرى ما يراه اللغويون العرب . كاللغوي المعاصر : (س . أولمان ، S. Ullmann) و(ف. ر . بالمر F. R. Palmer). الى معنى جديد عن طريق الاستعمال المجازيّ . فالأول يقول : « إنّ وظيفة الاستعارة هي إلحاق مدلول جديد بمدلول قديم عن طريق العلاقة المباشرة

(٨٦) المثلث ٤٨١/١ .

(٨٧) نفسه ٣٥١/١ .

(*) أي أن كل حركة تمثل صورة لفظية للكلمة تختلف عن الأخرى مثل بر ، وبر ، وبر ، بضم الباء وفتحها وكسرها فالصورة الأولى تعني : الحنطة ، والثانية : تعني ما يقابل البحر . والثالثة : تعني الخير ، أو جماع الخير كله .

بين المدلولين ، غير أنّ السّمات المشتركة فقط هي التي يدركها المتكلم حين يتمّ الانتقال من المعنى القديم الى المعنى الجديد » (٨٨) .

في حين يرى الآخر (٨٩) : « أنّ اكثر أنواع الصلات بين المعاني شهرة طريق الاستعارة ، حيث تظهر الكلمة وهي تحمل معنى يتصل بها اتصالاً حرفياً (٩٠) ، والمعنى الآخر – أو المعاني الأخرى – منقولة عن المعنى الأول » (٩١) .

ولاتختلف هذه النظرة أيّ اختلاف عن نظرة اللغويين والدلاليين العرب ، بل تتفق معها اتفاقا جوهرياً .

وفي هذا المقام يَرِدُ قول عبدالقاهر الجُرْجانيّ (ت ٤٧١ هـ) في تعريف الاستعارة : « إعلم أنّ الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغويّ معروفا تدل الشواهد على أنه اختصّ به حين وضع ثم يستعمله الشاعر او غر الشاعر في غير ذلك الاصل ، وينقله اليه نقلاً غير لازم » (٩٢).

وقد حفلت لغتنا الجميلة باستعارات بديعة صارت من باب المشترك اللفظيّ ، واستُعملت في الشعر والنثر . وفي المؤلفات الفنية والمخاطبات الأدبية ، وأثارت الاهتمام ، فدعت الناس الى الاستشهاد بها والتمثيل ، في المواطن المناسبة والسياقات الملائمة .

وما في لغتنا الجميلة من هذه الاستعمالات الباهرة لا يدانيه روعة ما هو موجود في كثير من اللغات الحية المعروفة الآن بأدبها وشعرها وفنّها القوليّ .

---

(٨٨) س . أو لمان : دور الكلمة في اللغة /١١٦ .

(٨٩) Palmer : Semantics, P. 66

(٩٠) Literal Meaning

(٩١) Sramsferrde Meanidg

(٩٢) أسرار البلاغة /٣٥ – ٣٦ .

فكلمة (اليد) العضو المعروف ، قد استعملت استعمالات مجازية عن طريق الاستعارة ، فكانت بحق من صور البيان العالية .

ومن هذه الاستعارات الجميلة (يَدُ الله) ، أي : قدرته . قال تعالى : (يدُ الله فوقَ أيديهم) (٩٣) .

وقد استشهد بهذا الآية ــ في سياق المقام ــ أحد الفلاسفة الإسلاميين في العصر العباسيّ ، خيرَ استشهاد . قال أبو العيناء الشاعر : كان لي خصومٌ ظلمة ، فشكوتهم الى (أحمد بن أبي دؤاد) وقلت له : إن القوم قد تضافروا عليّ ، وصاروا يداً واحدةً عليّ . فقال (أحمد) : يد الله فوق أيديهم .

ومن الاستعمالات الاستعارية لليد أنها تأتي للدلالة على العطاء الغامر والكرم الثرّ ، وعليه جاء قول (المتنبي) :

لــه أيادٍ عليَّ ســابغــةٌ أَعُدُّ منهــا ، ولا أُعَـدِّدُها

ويبدو ــ والله أعلم ــ أن أعضاء الإنسان كانت ميداناً واسعاً للاستعمالات الاستعارية ، أكثر من غيرها من المُسَمّيات المادية والحسية ؛ لأنها أقرب الأشياء الى الإنسان .

فالرأس والعين والحاجب والقلب ، كلها قد استعملت استعمالات مجازية واستعارية ، فأغنت بذلك المشترك اللفظي ، وكانت مورداً عذبا من موارده .

فقد استعمل العرب الرأس استعمالاً استعارياً ، فقالوا :

رأسَ فلانٌ القومَ رئاسة : صار رئيساً عليهم .

وعليه جاء قول النِّمر بن تَوْلَب : (٩٤)

---

(٩٣) سورة الفتح ، الآية : ١٠ .

(٩٤) أساس البلاغة ، للزمخشري /٣١٠ .

ويومَ الكُلابِ رأَسْنا الجمُوعَ
ضراراً وجَمْعَ بني المِنْقَـــرِ

وقالوا : هم رأس عظيم ، أي : جيش على حِيالِه ، لا يحتاجون الى إحلاب (٩٥) .

وفي الحديث الصحيح : « رأسُ الأمر الإسلام . وعموده الصلاة ، وذروة سَنَامه الجهادُ في سبيل الله » .

أما (العين) فقد أطلقوها مجازاً على نفائس الأشياء ، فقالوا : « فلان عين » ، أيْ : من خِيار قومه . ومن ذلك : « مجلس الأعيان » . لأنه ينتخب من أعيان البلد وخيارهم . وسَمّوا الذّهب عيناً ؛ لأنه أنفس المعادن وأحلاها .

وقالوا لمن يصادقك ويواليك رِياءً : صديق عين ، (٩٦) ومولى عين . وأنشد الجاحظ :

ومولى كعبد العين : أمّا لقاؤه
فيَرضي ، وأمّا غيبه فَظُنُونُ

أما (الحاجب) ، فقد أطلقوه على حاجب الشمس ، وأرادوا طَرَفَها . وشاهده المشهور قول قيس بن الخَطيم :

تَبَدَّتْ لنا كالشمس تحتَ غَمامة
بدا حاجبٌ منها وضَنّتْ بحاجبِ

وحواجب الصبح : أوائله . قال عبدالرحمن بن سيحانَ المُحاربيّ : (٩٧)

حتى اذا الصبحُ لاحتْ لي حَواجبُهُ
أدبرتُ أَسْحَبُ نحوَ القومِ أثوابي

(٩٥) اساس البلاغة /٣١٠ : والاحلاب : الإعانة » .
(٩٦) أساس البلاغة /٦٦٧ .
(٩٧) نفسه /١٥٣ .

أما (القَلْبُ) ، فقد أطلقوه مجازاً على (العقيدة) . قال تعالى : (ما جَعَلَ اللهُ لرجلٍ من قَلْبَيْن في جَوْفه) (٩٨) .

وقالوا : فلان سليم القلب ، يريدون من كان قلبه خالياً من الغِلِّ والحِقد والحسد . قال تعالى : (وإنّ مِنْ شيعته لإبراهيم إذْ جاء ربَّهُ بقلبٍ سليم) (٩٩) . وقال عزّ من قائل : (يومَ لا ينفَعُ مالٌ ولا بنون إلاّ مَنْ أتى اللهَ بقَلْبٍ سَليمٍ) (١٠٠) .

وقالوا : فلان غليظ القلب : للجافي القاسي .

قال تعالى : (ولو كنتَ فَظّاً غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا من حولك) (١٠١) .

وقالوا : رجل قَلْبٌ ، إذا كان خالصاً في قومه .

وامرأة قلبٌ وقابة ، عقيلة في قومها (١٠٢) .

قال أبو وَجْزَةَ السّعْدِيّ :

قَلْبٌ عقيلةُ أقوامٍ ذوي حَسَبٍ
تَرْمي المقانبُ عنها والأَراجيلُ (١٠٣)

وهكذا حفلت اللغة العربية بهذه الاستعمالات الجميلة في ميدان اعضاء الإنسان . ولو أردنا استقصاءها لطال بنا الحديث ، فأقصرنا .

وللشعراء « إسهام » كبير في اغناء المشترك اللفظيّ بالاستعمالات الاستعارية والمجازية .

---

(٩٨) سورة الاحزاب . الآية : ٤ .
(٩٩) سورة الصافات . الآية : ٨٤ .
(١٠٠) سورة الشعراء . الآية ٨٩ .
(١٠١) سورة آل عمران . الآية : ١٥٩ .
(١٠٢) أساس البلاغة /٧٨٤ .
(١٠٣) ترمي المقانب عنها : أي تذب عنها وتدافع لعزة قومها .

فالقمرُ الكوكب المعروف . وعندما استعمله البُحْتُرِيّ في وصف المتوكل فقال :

يؤدّون التحية من بعيدٍ الى قَمَرٍ من الإيوان بادي

فقد استعمله استعمالاً استعارياً ، لجامع الرفعة والبهاء بينهما .

و(الجَنّة) بمعناها الشائع في الكتاب الكريم ، معروفة ، وقد أطلقها الشعراء على الزوجة استعارياً لجامع الراحة والأنس بينهما . قال قتادة اليَشْكُرِيّ (١٠٤) :

ما أنت بالجَنّة الرِدود ولا عندك خيرٌ يرُجى لِمُلْتَمِسِ

ولعل (الفرزدق)قد قصد هذا المعنى حين و صف حالته ، بعد طلاق زوجه :

نَدِمْتُ نَدامةَ الكُسَعِيّ لمّا
غَدَتْ مِنّي مطلّقَةً (نَوارُ)

وكانت جَنّتي فخرجتُ منها
كآدمَ حينَ أخرجَهُ الضّرارُ

وعلى سبيل الاستعارة جعل (المتنبي) سيف الدولة شمسَ الزمان وبدرَهُ ، فقال :

أُحبّكَ يا شمسَ الزّمانِ وبدرَهُ
وإنْ لا مَنَى فيك السُّهَى والفَراقدُ

وكذلك فعل (التّهامي) حين رثى ابنه في رائيته المعروفة :

يا كوكباً ما كان أقصَرَ عُمْرَهُ
وكذاك عُمْرُ كواكبِ الأَسْحارِ

(١٠٤) الزاهر . لابن الانباري ٦٤/٢ (تحقيق الدكتور حاتم الضامن) .

إن قابلية الشاعر على تنظيم تجربته في استعارات موحية بالصور الفنية ليس إلاّ جزءاً من قابلية أكثر قدرة على تنسيق تجربته (١٠٥) .

وتأثير القصيدة ناتج عن نجاح الشاعر في تنظيم تلك التجربة .

والشاعر – والحالةُ هذه – مضطرّ لأنْ يكون استعارياً عندما يريد أن يحدّد انفعالاته وينظم تجربته الفنية ، ثم يجد نفسه تفتّشُ في مظاهر العالم الخارجي عن المماثل لانفعالاته ، أو عن البديل الموضوعيّ (١٠٦) لها . ولن يهدأ حتى يعثر عليه .

وإذا كان الشاعر يلجأ الى البحث عن البديل الموضوعي لانفعالاته ليحددها ، فاننا نطالب منه أن يكون ذلك البديل صائباً ، ولم يدُرك مِنْ قبلُ ، أو نادراً ما أُدرك حتّى يأتينا بكشف جديد صادق .

والاستعارة نفسها قائمة على علاقات لغوية ليست بدورها إلاّ بديلاً موضوعياً للعلاقات بين الأشياء وعلاقة هذه الأشياء بنفس الشاعر .

إن الواقع نفسه يتكون من علاقات متداخلة معقدة كُلَّ التعقيد . وعندما يكون الشاعر على علاقة بالأشياء أو بالكائنات ، فانه يتولد عنده انفعال بازائها . والشاعر لا يستطيع رؤية الأشياء كما هي حقيقة ، ولا أن يكون محدداً بازائها مالم يحدد المشاعر التي تربطه بها ، ومعنى ذلك أنه يحدد وجهة نظره تجاهها .

---

(١٠٥) سي . داي – لويس : الصورة الشعرية /٨٤ (الترجمة العربية ترجمتي وآخرين – بغداد : دار الرشيد ١٩٨٢) .

(١٠٦) البديل الموضوعي : اصطلاح أوجده الناقد الشاعر (ت . س . اليوت) ، وحدده بقوله : (انه سلسلة من الاهداف ، وموقف معين ، وسلسلة من الاحداث التي تكون منها جميعاً معادلة تلك العاطفة المعينة بحيث يتم تحريك هذه العاطفة حالما يقدم الشاعر الحقائق الخارجية التي ينبغي أن تنتهي بها التجربة الحسية) .
ينظر : م . ل . روز نتال : شعراء المدرسة الحديثة /١٢٣ (ترجمة جميل الحسيني ، ط . بيروت ١٩٦٣) .

ونحن نوافق (هيوم) حين يقرر : « أن مهمة الشاعر هي رؤية الأشياء كما هي عليه ، وأنْ يمرّنَ نفسه على تفكير مركز وسيطرة على النفس » (١٠٧) . ليقبض على ما يراه ضرورياً للتعبير الحقيقي عن رؤيته .

★ ★ ★

(١٠٧) الصورة الشعرية للشاعر الناقد . : سي . داي – لويس ، ترجمة د . أحمد نصيف الجنابي وزميليه . نشر دار الرشيد ببغداد ١٩٨٢ .

المبحث الثالث

ظاهرة المُشتَرك اللفظيّ بين وضوح الدلالة وغموضها

(١)

إن وجود « ظاهرة المشترك اللفظي » بهذا الوضوح ، في لغتنا الجميلة ، لفت نظر علمائنا إليها ، وحفزهم على التأليف فيها ، منذ عهد مبكر نسبيّاً .

وأول من ألّف في «الظاهرة » مقاتل بن سليمان ، اللغويّ المفسر(ت١٥٠هـ)

ويعد كتابه : « الأشباه والنظائر في القرآن الكريم » باكورة المصنفات في ظاهرة المشترك اللفظيّ .

وألف بعده الأصمعيّ (ت٢١٦ هـ) كتاباً في الظاهرة سمّاه (الأجناس) نقل منه السيوطي في المزهر (١٠٨) .

ثم تلاهما « ابراهيم بن يحيى بن المبارك اليزيديّ (ت ٢٢٥ هـ) ، فألف كتابه : (ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه) (١٠٩) .

وللامام المقرئ اللغوي : أبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) كتاب في الظاهرة نفسها عنوانه (الأجناس) (١١٠) .

وللمبرد (ت ٢٨٦ هـ) كتاب في الظاهرة عنوانه : (ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد) (١١١) .

وتوالت بعد هذا المؤلفات في الظاهرة ، غير أنها لا تعدو جمع الألفاظ ، ووضع المعاني التي تندرج تحت كل لفظة ، كما يظهر من المؤلفات الباقية في الموضوع (١١٢) .

---

(١٠٨) المزهر ٣٧٢/١ .
(١٠٩) الفهرست : ٥١ .
(١١٠) حققه الأستاذ : امتياز عرشي الرامفوري ، ونشره في بامباي – بالهند ، سنة ١٩٣٨م.
(١١١) نشر في مصر سنة ١٣٥٠ هـ
(١١٢) تعد معجمات الألفاظ كالعين وما سار على منهجه ، والصحاح وما تبعه من كتب المشترك اللفظي ، أيضاً .

غير أنّ اهمّ المؤلفات في هذه الظاهرة هو كتاب (نُزهةُ العيـون النواظر في علـم الوجـوه والنظائر) ، لابي الفـرج عبدالرحمن بن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) . وقد جمع فيه (٣٢٤) لفظة من ألفاظ المشترك اللفظي ، أيْ بزيادة (١٣٩) لفظة على كتاب « مقاتل » .

وقد حقق الكتاب (محمد عبد الكريم كاظم الراضي) ، ونشرته مؤسسة الرسالة ، ببيرت سنة ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م .

(٢)

وعلى الرغم من وجود ظاهرة المشترك اللفظي بهذا الوضوح فقد وقف العلماء اللغويون والدلاليون : القدامى والمحدثون منها مواقف مختلفة . ولذلك يمكن تقسيم مواقفهم من هذه الظاهرة ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أقرُّوا بوجود هذه الظاهرة في أصل الوضع ، ولم يلاحظوا أيّ سلبية في هذا الوجود، في اللغة . وهم أمثال : مقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ)، والخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) ، وأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) وإبراهيم بن يحيى بن المبارك اليزيديّ (ت ٢٢٥ هـ) ، والأصمعي (ت٢١٦هـ)، والمبّرد (ت ٢٨٦ هـ) ، والأزهري (٣٧١ هـ)، وأحمد بن فارس(ت٣٩٥هـ)، والجوهريّ (نحو ٤٠٠ هـ) ، وابن الجوزي (٥٩٧ هـ) ، وغير هؤلاء كثير .

وهذا هو القسم الغالب ، وغيره قليل ونادر .

القسم الثاني : وهم نفر قليل ، قالوا : « إن اتفاق اللفظين واختـلاف المعنيين ، ينبغي ألاّ يكون قصداً في الوضع ولا أصلاً ، ولكنه من لغات تداخلت . أو تكون كل لفظة تُستعمل بمعنى ، ثم تُستعار لشيء فتكثر وتغلب فتصير بمنزلة الأصل » (١١٣) .

وهذا رأي ابن سِيدَهْ ومن تابعه .

ولو نظر ابن سِيدَهْ الى كتابه (المحكم) ، وهو من معجمات الألفاظ ، لتبين له وجود هذه الظاهرة في اللغة بأجلى مظاهرها .

ففي العربية — مثلا — مئات من الكلمات تطلق على معانٍ متعددة في آن واحد ، عند جماعة واحدة .

(١١٣) المخصص ٢٥٩/١٣ .

فنحن نطلق لفظة (الرسالة) على (المكتوب) الذي نرسله الى من نعرفهم سواء أكانوا أصدقاء أم أهلاً .

ونطاقها على الكتاب الذي يؤلف في موضوع واحد لا يتجاوزه ، مثل رسالة التربيع والتدوير ، للجاحظ . ورسالة الصحابة ، لابن المقفع ، ورسالة الصداقة والصديق ، لأبي حيّان التوحيديّ .

وفي العصر الحديث نطلق لفظة (عماية) على العماية الجراحية ، فنقول : تُجرى العمليات الدقيقة في مستشفى مدينة الطبّ ، وأُجريت لصديقي عملية اللوزتين .

ونطلق لفظة (العملية) على النشاط العسكري ، فنقول : قام المقاتلُ بعمليات جريئة في الميدان .

ونطلق اللفظة نفسها على العمليات الأربع في الرياضيات .

ونستعمل الفعل (يقوم) للدلالة على القيام . ويُستعمل ليدل على السلوك الإنساني صالحاً كان أو غير صالح . كما يستعمل ليدل على معان أخرى لسنا بصدد تفصيلها ؛ لأننا لم نرد إلاّ التمثيل لإبطال وجهة نظر ابن سِيدَهْ .

القسم الثالث : قالوا : إن وجود المشترك اللفظيّ يولد الإبهام ، أو الغموض ، او التعمية .

وقد قال بهذا الرأي من علمائنا (ابن درستويه) « ت ٣٤٧ هـ » ومن علماء الدلالة(١١٥)المحدثين (بالمر) Palmer ،و(أولمان) (١١٧) Ullmann .

---

(١١٤) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه . من اللغويين والدلاليين المعروفين . ألف شرح الفصيح ، وفعل وأفعل ، وكتباً في القراءات . وتوفي ببغداد (تاريخ بغداد ٤٢٨/٩ والبغية ٣٦/٢)

(١١٥) أستاذ علم اللغة بجامعة ريدنك . University of Reading (١١٦)

(١١٧) أستاذ علم اللغة ، بجامعة ليدز Leads بالمملكة المتحدة .

أما ابن درستويه فيرى « أن اللغة موضوعة للابانة عن المعاني . فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين ، أو أحدهما ضد الآخر ، لما كان ذلك إبانة ، بل تعمية وتغطية . ولكنْ قد يجيء الشيء النادر من هذا ، لعِلَلٍ ، كما يجيءُ فعل وأفعل فيتوهم من لا يعرف العلل أنّهما لمعنيين مختلفين ، وإنْ اتفق اللفظان والسماع في ذلك صحيح من العرب ، فالتأويل عليه خطأ .. » (١١٨) .

أما (بالمر) فيرى « أن دلالة اللفظة الواحدة على أكثر من معنى يخلق صعوبة في الفهم .. » ، ويسمي تلك الصعوبة التي تنشأ من عدم التمييز بين المعنيين « مشكلة » (١١٩) Problem .

وقد اختار (بالمر) كلمة (الطيران) التي تدل في الانكليزية على رحلة جوية ، وعلى القدرة على الطيران ، وتعني أيضاً اتحاد القوة الجوية .

فمن الصعوبة — عنده — التمييز بين معاني كلمة (الطيران) إذ « ليس من السهل التمييز بين معاني هذه الكلمة » . هكذا يقول بالمر .

ولا يكتفي بذلك ، بل يعطي مثالاً آخر على ماسماه (مشكلة) .

وهو الفعل (نأكل) ، ويقول : « من الواضح أننا نأكل أنواعاً مختلفة من الأطعمة بطرق متباينة ... واذا لم نُعِرْ هذه المسألة اهتمامنا ، فاننا نقرّ بأنّ الفعل له معانٍ مختلفة تبعاً لأنواع الطعام التي نأكلها » (١٢٠) .

ولو نوقشت وجهة نظر (بالمر) ،في ضوء الأساليب العربية لبدتْ بعيدة عن الصواب ، سواء أكان استعمال الفعل (نأكل) حقيقياً أم مجازياً .

ونناقش الفعل (يأكل) فنراه يعني أكل الطعام حقيقة :

---

(١١٨) المزهر ٣٨٥/١

(١١٩) F. R. Palmer : Semantics, P. 65

(١٢٠) Palmer : Ibid ., P. 65

(١) قال تعالى : (ما هذا إلاّ بَشَرٌ مثلُكُمْ يأكُلُ ممّا تأكلون منه ويشرَبُ ممّا تَشرَبُونَ) (١٢١) .

(٢) وقال تعالى : (وقالوا : ما لِهذا الرسولِ يأكُلُ الطّعامَ ويمشي في الأسواق) (١٢٢) .

(٣) وقال تعالى : (كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بما أسْلَفْتُمْ في الأيّام الخاليةِ) (١٢٣) .

وهنا نرى أن الاستعمالات الثلاثة واضحة الدلالة ، وليس فيها أي غموض ، ولا إيهام ولا مشكلة في فهم الدلالة . .

ثم نلاحظ استعمال الفعل المجازي ، فنقرأ الآيات الكريمة الآتية :

(١) قال تعالى : (ومَنْ كان فقيراً فليأكُلْ بالمعروف) (١٢٤) .

أي : من كان قيِّماً على أموال القاصرين ، فليأخذ منها بالإنصاف والعدل ، بعيداً عن التعسف والظلم .

(٢) وقال تعالى – حكاية عن عيسى : (وأُمه صِدّيقةٌ كانا يأكُلانِ الطّعامَ) (١٢٥) .

وهذا الاستعمال للفعل (يأكل) كناية عن بشرية عيسى بن مريم عليهما السلام .

(٣) وقال تعالى : في شأن تأويل يُوسُفَ لرؤيا الملك : (ثم يأتي من بعدِ ذلك سبعٌ شدادٌ (١٢٦) يأكُلْنَ ما قدّمْتم لهنّ إلا قليلاً مما تحصنون) (١٢٧)

---

(١٢١) سورة المؤمنون . الآية : ٣٣ .
(١٢٢) سورة الفرقان . الآية : ٧
(١٢٣) سورة الحاقة . الآية : ٢٤ .
(١٢٤) سورة النساء . الآية : ٦ .
(١٢٥) سورة المائدة . الآية : ٧٥ .
(١٢٦) أي : سنوات سبع شداد بقحطهن ومحلهن .
(١٢٧) سورة يوسف . الآية : ٤٨ .

وهنا استعمل الفعل استعمالاً مجازياً كناية عن القحط والمحَـل .

فماذا نجد ؟ هل نجد غموضاً ؟ وهل نجد إبهاماً ؟

إننا لا نجد سوى الوضوح في الدلالة ، بحيث لا تخفى على أحد يعرف هذه اللغة .

ونأخذ الفعل مسنداً الى الطير والأنعام ، فتكون النتيجة كأختها .

(١) قال تعالى : (وأمّا الآخرُ فيُصْلَبُ فتأكلُ الطّيْرُ من رأسه) (١٢٨) .

(٢) وقال تعالى : (فنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تأكلُ منه أنعامُهُم) (١٢٩) .

فأيُّ وضوح بعد هذا ، وأيّ بيان ؟ !

وأين المشكلة الدلالية التي تصورها (بالمر) ؟ !

لكن الأستاذ (س . اولمان) يرى أن ظاهرة المشترك اللفظيّ كثيرة الورود في اللغة الانكليزية ، ويرى أن هذه الظاهرة سِمة من سمات الكلام والعقل البشريين يتميز بهما عن بقية المخلوقات . ولولا وجود هذه الظاهرة لأصبح وضع كلمة مستقلة لكل شيء من الأشياء – وهو ما أراده بالمر – عبئاً ثقيلاً على الذاكرة الانسانية ، فان « اللغة في استطاعتها أنْ تعبر عن الفكر المتعددة بوساطة تلك الطريقة الحصيفة القادرة التي تتمثل في تطويع الكلمات وتأهيلها للقيام بعدد من الوظائف المختلفة ؛ وبفضل هذه الوسيلة تكتسب الكلمات نفسها نوعاً من المرونة والطواعية » (١٣٠) .

ولا يقف (أولمان) عند هذا الحد ، بل يرى أن هذه الظاهرة تولّد نوعاً من الغموض . فيقول : « أما الثمن الذي تقدمه الكلمات في مقابل هذه

---

(١٢٨) سورة يوسف الآية : ٤١ .

(١٢٩) سورة السجدة . الآية ٢٧ .

(١٣٠) – (١٣١) س . أولمان : دور الكلمة في اللغة/١١٥ (ترجمة الدكتور كمال محمد =

المزايا كلها ، فيتمثل في ذلك الخطر الجسيم : خطر الغموض . على أن تعدد المعنى ليس هو المصدر الوحيد للغموض . وان كان – بدون شك – أساسا من أسس توليد هذا الغموض » (١٣١) .

إنّ اللغويين والدلاليين الذين يقولون : إنّ المشترك اللفظيّ يُحدث « تعمية وتغطية » – كما يقول : ابن درستويه – او يحدث التباساً في الفَهم يولد مشكلة دلالية – كما يقول : بالمر – أو يُحدث غموضاً – كما يقول : أولمان – إن جميع هؤلاء ومن تابعهم – فاتتهم ثلاثة أمور تدخل في تحديد دلالة اللفظة ، ولو راعوا هذه القضايا الثلاث لما قالوا بهذا الذي عرفناه . كما سيتضح . وهذه القضايا هي :

أولا : السياقُ .

ثانياً : المعنى الحضوريّ للتركيب اللغويّ .

ثالثاً : التركيز الدلاليّ .

* أما السِّيَاقُ فانه يحدد دلالة الكلمة تحديداً دقيقاً مهما تعددتْ معانيها ، وهو (صِمامُ الأَمان ضدّ اللَّبْس) . كما سمّاه بعض المعاصرين (١٣٢) .

والسياق المعنيّ – هنا – هو موقع الكلمة في التركيب اللغوي (١٣٣) ، ويفترض المشترك اللفظي أن تكون للكلمة معان عديدة. وهو أمر يعد من البديهيات عند دارسي علم الدلالة ..

= بشر ، ط . مصر ١٩٧٢)

(١٣٢) اللغة . لفندريس /٢٧٣ .

(١٣٣) تختلف تقسيمات اللغويين المحدثين للسياق . وقد اقتصرت على المعنى التقليدي المشهور له ... تنظر التفصيلات في : دور الكلمة في اللغة /٥٤ – ٥٥ . واللغة العربية معناها ومبناها / ٣٣٧ – ٣٣٩ ، وكذلك :

Ogden and Richards: The Meaning of Meaning P. 58 .

Palmer : Semantics , pp. 52 - 53 .

(فالعين) تطلق في العربية ويراد بها :

(١) ما يرجع الى العين الناظرة ، وهو قسمان :

أ – ما يرجع اليها بالاشتقاق .

ب – ما يرجع اليها بالتشبيه .

فأما الذي يوجبه الاشتقاق ، فعلى قسمين :

مصدر ، وغير مصدر .

والمصدر ثلاثة ألفاظ :

العين : الإصابة بالعين .

والعين : أن تضرب الرجل في عينه .

والعين : المعاينة ..

وغير المصدر ثلاثة ألفاظ ، هي :

العين : أهل الدار .

والعين : المال الحاضر .

والعين : الشيء الحاضر .

أما الذي يرجع الى التشبيه فستة معانٍ :

العين : الجاسوس ؛ لأنه يطلع على الأمور الخفية .

وعين الشيء : خياره .

والعين : الربيئة ، وهو الذي يرقب القوم .

وعين القوم : سيّدهم .

والعين : واحد الأعيان وهم الأخوة الاشقّاء .

والعين : الحُرُّ . .

كل هذه مشبهة بالعين اشرفها (١٣٤) .

---

(١٣٤) انزهة الاعين النواظر ، صفحات :٤٤٣ وما بعدها. و المزهر ٣٧٤ : ، واللسان (عين) .

(٢) أما ما لا يرجع الى العين الناظرة ، فعشرة معان (١٣٥) :

العين : الدينار ..

والعين : اعوجاج في الميزان ، أي : اذا رجحت احدى كفتيه .

والعين : سحابة تأتي من ناحية القبلة .

والعين : مطر يدوم أياماً كثيرة لا يقلع .

والعين : طائر .

والعين : عين الماء .

والعين : عينَ الرُّكْبَة ، وهي نقرة في مقدّمتها .

والعين : عين الشمس .

والعين : عينُ القبلة .

وعين كل شيء : ذاته . تقول : جاء الرجل عينُه ، أي : ذاته .

فاذا أضفنا الى هذا المعاني التي وُلِّدتْ ، وأضيفت الى ما تدل عليه كلمة (العين) ، ادركنا غنى اللغة العربية وسعتها ...

ولكنْ كيف نميز بين معنى وآخر ...

إن الاستعمال هو المميز بين معنى ومعنى « إن الكلمة لها على وجه العموم من المعاني بقدر ما لها من الاستعمالات ولكنّ كلّ معنى منها مستقل عن عن المعاني الاخرى ، اذ انه لا يكون في ذهننا عند استعمال الكلمة إلاّ معنى واحد » (١٣٦) .

هذا من جهة التمييز بين المعاني المختلفة .

أما تحديد الدلالة تحديداً دقيقاً ، فيرجع الى السياق . وفي هذا يقول العالم اللغوي « فندريس » : « الذي يعيِّنُ قيمة الكلمات في كل الحالات إنما هو

---

(١٣٥) المزهر ١ : ٣٧٥ واللسان (عين) .

(١٣٦) اللغة /٢٤٢ .

السياق ، اذْ إنّ الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جَوٍّ يحدد معناها تحديداً دقيقاً . والسياق هو الذي يفرضُ قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أنْ تدلّ عليها » (١٣٧) .

ومن الأمثلة على تحديد السياق الدلالةَ تحديداً دقيقاً ، استعمال لفظة (السماء) التي تدل على معان عدة ، يميزها الاستعمال ، ويحددها السياق .

— فهي تدل على ما يقابل الأرض ، وهو المعنى العام المشهور لها .

وقد جاءت بهذه الدلالة في هذا السياق القرآني :

(إنّ في خلق السّموات والأرض واختلافِ الليلِ والنّهارِ لآياتٍ لأُولى الأَلْباب) (١٣٨) .

— ودلت على السقف — في هذا السياق القرآني :

(مَنْ كان يَظُنُّ أنْ لن ينصُرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخِرَةِ فليمدد بسبب الى السّماء ، ثم ليقطَعْ) (١٣٩) .

— ودلت على المطر ، في هذا السياق ، الذي جاء في بيت معود الحكماء (١٤٠) :

إذا نزَلَ السّماءُ بأرضِ قومٍ رعيناهُ وإنْ كانُوا غِضابا ..

أما النقطة الثانية التي أهملها اللغويون القدامى والمحدَثون — الذين قالوا : إنّ المشترك اللفظيّ يسبب التباساً او غموضاً — فهي أنّهم لم يُراعُوا المعنى الحضوري للكلمة المفردة ، ولا العبارة ، ولا الجملة ، ولا البيت الشعريّ ، ولا المقطوعة ، ولا القصيدة . إنهم أهملوا المعنى الحضوري للتركيب اللغوي .

---

(١٣٧) اللغة /٢٣١ .
(١٣٨) سورة آل عمران . الآية : ١٩٠ .
(١٣٩) سورة الحج . الآية : ١٥ .
(١٤٠) المنجد في اللغة . لكراع /١٠٢

إنّ للغة معنى حضورياً . وإنّ الكلمات ليست أحجاراً مرصوصة ، ولا كائنات جامدة . إنها أحداث حيّة ما دامت تصدر عن حيّ عاقل ، ويخاطب بها العقلاء الذين يملكون مشاعرَ وأحاسيس دقيقة . وهذا يعني أنّ دلالتها تتأثر بما يحيط بها ، سواء أكان ذلك من جانب المتكلم أم من جانب المخاطب . أو من جانب المحيط الإنساني والماديّ الجامد على حدّ سواء .

إنّ الجملة الواحدة قد يكون لهـا أكثر من مدلول واحد حين تصدر في حالات مختلفة عن شخص واحد .

فأنت تسأل إنساناً — كان مريضاً — فتزوره بعد شفائه ، فتقول : كيف حالك ؟ فيقول : « الحمدُ لله » .

وهذا يعني أنه قد شُفي من مرضه ، وشعر بالعافية ، وأحسّ بحلاوتها بعد المرض . وما أحلى العافيةَ بعد السقم !

وتسأل هذا الإنسان — وهو مظلوم أو محزون لسبب من الأسباب — كيف حالك ؟ فيجيب : « الحمدُ لله » .

وهذه العبارة تعني : الحمدُ لله الذي لا يُحمدُ على مكروه سواه .

ويقف هذا الإنسان أمام ربّه خمس مرّات في اليوم والليلة ، فيقرأ سورة الفاتحة في الصّلوات الخمس سبع عشرة مرة (إن اكتفى بالفرائض) ، وفي كل مرة يفتتح القراءة قائلاً : (الحمد لله ربِّ العالمين) . وكيف لا يحمده وقد هداه الى أقوم السّبُلِ ، واكرمه بهذا النبيّ الكريم ، وبهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

أمّا تأثرُ مدلول الكلمة أو الحدث اللغوي بالمتلقّي أو السامع ، فيُحدث أرجاعاً قد تكون بعيدة المدى .

ومن أمثلته الجديرة بالذكر — هنا — ما أورده مؤرخو الأدب عن الشاعر المعروف (ذي الرُّمّة) .

فقد نظم قصيدته البائية التي عُدتْ من غرر القصائد في عصرها :

ما بالُ عينكَ منها الماءُ ينسكبُ
كأنّهُ مِنْ كُلًى مَفْرِيّةٍ سَرَبُ

وأنشدها أمام (عبدالملك بن مروان) ، وكانت عيناه تسيلان دمعاً دائماً (لمرض مزمن) ، فظنّ عبدالملك أنّ ذا الرُّمّة عرّض به ! فغضب عليه ، وقطع إنشاده ، وأمر باخراجه من حضرته (١٤١) .

إن هذه البائية عُدّت عند النقاد العرب المعاصرين للشاعر أو القريبين من عصره ، من أحسن قصائد ذي الرمة .

وان عبدالملك لما سمعها – بعد أن غيّر الشاعر لفظة عينك بلفظة عيني – قال للشاعر : لو أنّ قصيدتك قيلت في الجاهلية لسجدت العرب لها !

وان عبدالملك هو الذي أرسل الى الشاعر – قبل أن ينشده – من أحضره ؛ لأنه ذكر له جودة شعره ، فأحبّ أن يراه ويسمع شعره !

فما الخبر ؟ وما الخطب الذي جعل عبدالملك يغضب على الشاعر ، ويخرجه من حضرته ؟

إنه : « مابال عينك منها الماء ينسكبُ » .....

إنه اقتران غير سعيد ... وما كلّ هذا .

ولما غيّر الشاعر ضمير المخاطب الى ضمير المتكلم ، فقال :

« ما بالُ عينيَ منها الماءُ ينسكبُ »

تغيّر كل شيء ، وصارت القصيدة مثلاً أعلى في الشعر العربيّ !

أرأيت كيف حدث كل هذا من أجل اقتران لفظة بحالة من حالات المخاطب ، لا يحبُ أن يخاطبه الناس بها ؟!

أما ما يُحدثه اقتران الحدث اللغويّ بشيء ماديّ يعطي الدلالة معنى حضورياً ، فمن أمثلته ما ذكره صاحب (الهفوات النادرة) ، إذ قال :

(١٤١) الهفوات النادرة . لغرس النعمة صفحات : ٤٢ – ٤٣ .

« لما فرغ (المعتصم) من بناء قصره الذي شيّده ببغداد لعمته (العبّاسة) ، جلس فيه ، وجمع أهل بيته وقومه وأصحابه ، وأمر الناس أنْ يلبسوا الديباج ، ويدخلوا عليه ... وجلس هو على سرير مُرَصَّع بأنواع الجواهر ، ووضع على رأسه التاج الذي فيه الدُّرّة اليتيمة ، فما رأى الناس أحسنَ من ذلكَ اليوم » .

كل هذا جميل وطبيعي حين . يصدر عن ملك ...

لكنّ الذي جعل هذا الوضع ينقلب رأساً على عقب هو استئذان (اسحاق الموصلي) الشاعر المغني ، على (المعتصم) لينشده شعراً ، فأذن له ، فأنشده قصيدته التي مطلعها :

يا دارُ غَيَّرَكِ البِلى فمحـــــاكِ

يا ليتَ شِعري ما الّذي أبلاكِ ؟

فلما سمع (المعتصم) هذا المطلع المفاجئ ، تطيّر منه !!

أما الحاضرون فقد تغامزوا على (اسحاق الموصليّ) ، وقالوا : كيف فاته هذا المقام ، وهو الخبير بمجالسة الملوك ؟ !

ثم خرج (المعتصم) الى (سامراء) ، وخرّب القصر..!!

أرأيت كيف يفعل الاقتران الحضوري للتركيب اللغوي بشيءٍ ماديّ ؟ وكيف يحدد الدلالة تحديداً دقيقاً ، واسع الأثر ، بعيد المدى ؟

أما النقطة الثالثة التي أهملوها ، فهي قضية « التركيز الدلالي » ، وأعني به : « تكثيف أكثر من معنى في اللفظة الواحدة ، في جملة واحدة ، في سياق واحد . لغاية وهدف مقصودَين ، بحيث تكون كل تلك المعاني مطلوبة في التركيب اللغوي مقصودة من إيراده » .

ففي اللغة العربية الفصحى ، ولاسيما لغة القرآن الكريم ، مواطن كثيرة تأتي فيها لفظة واحدة ، لتؤدي أكثر من معنى واحد ، في آن واحد .

وأرى أن هذه السمة ، من خصائص اللغة العربية التي لا نجدها في لغة من اللغات الحية الاخرى .

ومن أمثلة ذلك لفظة (سامدون) في الآية الكريمة : (أفمِنْ هذا الحديثِ تعجَبُون ، وتضحَكُونَ ولا تبكُونَ ، وأنتم سامدون . فاسْجُدُوا للهِ واعبُدُوا) (١٤٢) .

فما دلالة « السُّمُود » في الآية الكريمة ؟

لقد فسّرها عبدالله بن عباس (ت ٦٨ هـ) بالغناء ، وقال : هي لهجة يمانية . وتابعه على ذلك تلميذه عِكْرِمة بن عبدالله (ت ١٠٤ هـ) .

وفسّرها المقرئ المفسر مجاهـد بن جَبْر (ت ١٠٣ هـ) بالبرطمة (تقطيب الشفتين) ، وهي دلالة على عدم الرضا .

وفسّرها عبـدالرحمن بن زيد (ت ١٨٢ هـ) ، فقـال : السامد : الغافل . (١٤٣) .

وقال الضحاك بن مزاحم الهلالي (ت بعد سنة ١٠٠ هـ) : « السمود : اللهو واللعب » .

وقال الليث بن المظفر (وهو لغوي معروف) : « سامدون : ساهون . والسمود في الناس الغفلة والسهو عن الشيء » .

وقال المبرد : « السامد : القائم في تحيُّرٍ » (١٤٤) .

فأي المعاني صحيحة ؟

أرى أنّ كل هذه الأقوال صحيحة .

---

(١٤٢) سورة النجم . الآيتان : ٦٠ – ٦١ .

(١٤٣) تفسير الطبري ٢٧ : ٤٨ ، ٤٩ .

(١٤٤) تهذيب اللغة (سمد) ٣٧٧/١٢ ، واللسان (سمد) ٢٠٤ .

غير أنّ الذي ينقصها هو أن كل واحد من أهل العلم نظر الى اللفظة نظرة جزئية ، ولم يفطن الى هذا التركيز الدلالي في اللفظة : (سامدون) .

إنّ المقصود بالكلمة في هذا السياق ، هو كل هذه المعاني وإنّ دلالتها تتسع لكل هذه المعاني .

فهؤلاء الذين اعرضوا عن القرآن الكريم وعن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، هم اللاهون عن ذكر الله ورسالة نبيه الكريم ، بالغناء . وهم الساهون عنه . وهم المتجبرون بَطَراً وأَشَراً وطغياناً . وهم المتكبرون عن الخضوع لحكم الله وشريعته .

واتّساقاً مع هذا التركيز الدلالي ، فالسجود في الآية الكريمة التي جاءت في السياق نفسه : (فاسجُدُوا للهِ واعبُدُوا) ، لا يراد به السجود في الصلاة ، لأنّ المخاطبين ليسوا من المسلمين حتى يُصَلّوا . بل المراد به الخضوع والتسليم لأمر الله . وهو المعنى العام للسجود المعروف عند العرب قبل الإسلام (وقد مضى شرحه) .

والخلاصة أنّ هذه العوامل الثلاثة : السياق ، والمعنى الحضوري للتركيب اللغوي ، والتركيز الدلالي تؤثر في تحديد الدلالة تأثيراً واضحاً ، وتحديد المقصود بالحدث اللغوي تحديداً دقيقاً ، فتزيل اللبْسَ ، والإبهام ، والغموض ، إنْ وُجدتْ .

★ ★ ★